

النجاة



محمد عبد الشافي القوصي-مصر

أبدأ لشيء يُغضبك... فسمع هاتفاً
يقول: جَرَّبْنَاكَ مراراً، فوجدناكَ
كاذباً!

فراح يرتجف ممّا سمع،
ويتلوّى من شدة التوبيخ! ثمّ صرخ
مذعوراً:

العفو... يا صاحب العفو! يا مَنْ
يَغْضَبُ على مَنْ لا يسأله؛ لا تمنع
مَنْ قد سألك!



في تلك اللحظة الحرجة، وعلى
غير موعد؛ دخل عليه صاحبه،
فقال له: أَنْتَ صادق فيما تقول؟
قال: نعم.

فَتَفَرَّسَ في وجهه، ثمّ قال:
أرجوك أَنْ تطوي صفحتك
القديمة، ولا تشغل نفسك بأكاذيب
الأحزاب، والأعياب السياسية، وخداع
الساسة؛ الذين صنعوا الأوهام،
وتاجروا بالأوطان، وشاركوا في
المأساة.. وعقروا الناقة!

يا صاحبي؛ ارضَ بما قسمه
الله لك، ودعكَ من المخاطرة...
فَلَسْتَ بحاجة إلى أَنْ أذكركَ بأنَّ
(يوسف) كانت معه خزائن الأرض.
ومع ذلك؛ كان يَصُومُ يوماً ويفطرُ
يوماً.. حتى لا يَنْسَى الجائع! وأبو
القاسم ﷺ راودته جبال مَكَّة على

حُمِلَ بعدها إلى البيت مُعْتَلًا،
فَمَكَّتْ في غيبوبة إثر غيبوبة، وطال
به المرض، حتى يئس الأطباء - كل
الأطباء - من علاجه!

فتأدى بصوت مُنْكَسِرٍ محزون:
إلهي؛ عَجَزَ المداوون.. وَلَمْ يَبْقَ
إلا أَنْتَ، فداوني، فإنِّي لا أعودُ
لمعصية... فعافاه الله. فرجع إلى
المعاصي أشدَّ مما كان!

فبينما هو كذلك أصابه المرض
مرةً ثانية، فقال: إلهي؛ أَقْلِنِي
عثرتي، وأقمني من صرعتي، فلا
أقترف بعدها خطيئة؛ فأقامه
الله من صرعته. فإذا هو خَصِيمٌ
مُبِين!

فبينما هو كذلك، وقد استحوذ
الشیطان عليه؛ أخذَه المرض مرةً
ثالثة واشتدَّ عليه بقوة، فقال بصوتٍ
ضعيف: إلهي وسيدي؛ ارحمني
وعافني ممّا نزل بي، فإنِّي لا أعودُ

مِنْ أَقصاها إلى أَقصاها؛
لَمْ تعرف البلدة كلها أوسع منه
شهرة، ولا أكثر منه جاهاً، ولا
أدهى منه حيلة.. لَكُنْ مشكلاته
كانت مستعصية، وأزماته لا تنتهي،
وأغلب المقربين منه كانوا على
خِلافٍ معه؛ بسبب آرائه الحزبية،
ومعاركه السياسية، وطموحاته
المادية الشَّرهة، فضلاً عن عقوبه
لأُمَّه العجوز!

لما كان أول يوم في العام الجديد،
تَوَجَّه إلى عمله باكراً.. فإذا
بشخص مجهول يمسك به ويضربه
ضرباً مبرحاً حتى كاد يُودِي به..
فراه أحد زملائه، فأسرع لِيُخْلَصَه
منه، فقال له:

ارجعْ يا هذا، ودعه يضربني؛
فإنِّي قد ضُربتُ أُمِّي في هذا
المكان!

عندما استردَّ عافيته؛ خرج
ليشتري بعض حاجاته، فتشاجر
مع أحد الباعة الأشقياء، فصفعه
على وجهه بقوة حتى سقط على
الأرض، وأخذ يَجْرُهُ بلا هوادة..
فَظَلَّ يَتَوَسَّلُ إليه، ويسكب الرجاء
عند قَدَمَيْهِ، ويصرخ: كفاكَ،
كفاكَ هذا.. فإنِّي قد جَرَزْتُ أُمِّي
إلى هنا فقط!



أَنْ تَصِيرَ لَهُ ذَهَباً.. فَأَبَى، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافاً!

فَاسْتَيْقَظَ مِنْ غَفْلَتِهِ، وَافْأَقَ مِنْ غَيْبِوْبَتِهِ، وَتَمَتَّمَ:
مَاذَا أَفْعَلُ إِذَنْ..؟

فَاسْرَعَ بِهِ صَاحِبُهُ نَحْوَ (السَّاحَةِ الرِّضْوَانِيَةِ) وَهَنَآكَ حَكَى لِلشَّيْخِ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ.

فَاجْلَسَهُ بِجَوَارِهِ عَلَى سَجَادَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ كَسَجَادَةِ الْخَضِرِ! وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ، وَقَالَ: إِنَّ الدُّنْيَا كَادَتْ تَقْفُ عِثْرَةً فِي طَرِيقِ سَلِيمَانَ.. فَمَنْ تَكُونُ أَنْتَ أَيُّهَا الْمَسْكِينُ بِجَوَارِ هَذَا الْعَابِدِ الْأَوَّابِ؟!

ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِ بَعْضاً مِنْ آيِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِهِ، وَقَالَ: كُنْ وَاثِقاً فِي فَرْجِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ،

فَ(نُوحٍ) كَانَ يُضْرَبُ حَتَّى يُغَشَى عَلَيْهِ، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ نَجَا فِي السَّفِينَةِ! وَ(الْخَلِيلِ) الْقِيَّ فِي النَّارِ، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ خَرَجَ سَالِماً! وَ(الذَّبِيحِ) يَضْطَجِعُ مُسْتَسْلِماً، وَفَجْأَةً أَتَاهُ الْفِدَاءُ، وَبَقِيَ مَدْحُهُ إِلَى الْأَبَدِ! وَ(يَعْقُوبُ) يَذْهَبُ بِصَرِهِ بِسَبَبِ الْفِرَاقِ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ قَبْلَ الْوُصُولِ! وَ(مُوسَى) يَشْتَغِلُ بِالرَّعِي، ثُمَّ يَرْفَعُ إِلَى التَّكْلِيمِ! وَ(مُحَمَّدٌ) يُقَالُ لَهُ بِالْأَمْسِ الْيَتِيمُ، ثُمَّ جَاءَ الْيَوْمُ الَّذِي أَتَتْهُ الْمُلُوكُ وَالْقِيَاصِرَةُ مُكَلِّلِينَ!



مَا إِنَّ سَمِعَ هَذِهِ الْبَشَارَاتِ: حَتَّى عَادَتْ إِلَيْهِ رُوحُهُ، وَدَبَّتْ فِيهِ الْحَيَاةُ، وَشَعَرَ كَأَنَّهُ فِي حِلْمٍ بِهِيجٍ.. فَشَكَرَ الشَّيْخَ، وَقَبَّلَ رَأْسَهُ مَرَاراً.. ثُمَّ طَلَبَ وَصِيَّةَ يَخْصُهُ بِهَا.. فَأَخْرَجَ وَرْقَةً، وَكَتَبَ لَهُ فِيهَا: احْذَرْ لُجَّةَ الْبَحْرِ، وَلَا تَغْتَرَّ بِسُكُونِهِ، وَعَلَيْكَ بِالسَّاحِلِ، وَلَا زِمَ حِصْنِ التَّقْوَى!!

فَالْتَقَطَهَا مِنْ يَدِهِ، وَأَخَذَ يَتَأَمَّلُ فِيهَا وَيَتَأَمَّلُ، كَأَنَّهَُا مِنْ الْوَاحِ مُوسَى!

وَقَبْلَ أَنْ يَفَادِرَهُ، قَالَ: إِنَّ أُمِّي هَجَرْتَنِي مِنْذُ سَنِينَ بَعِيدَةٍ، وَلَا أَعْرِفُ لَهَا سَبِيلاً.. وَأَخْشَى مَا أَخْشَاهُ أَنْ أَمُوتَ عَاقِلاً لَهَا!

فَتَغَيَّرَ وَجْهُ الشَّيْخِ تَمَاماً، وَنَهَضَ مُنْزَعِجاً، ثُمَّ رَفَعَ كَفَّيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ، وَدَعَا بِصَوْتٍ خَاشِعٍ نَدَى كَأَنَّهُ مَزْمُورٌ مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ، قَائِلاً: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ! أَسْأَلُكَ بِالرَّحْمَةِ الَّتِي رَحِمْتَ بِهَا «إِسْرَائِيلَ» فَجَمَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَلَدِهِ، وَأَسْأَلُكَ بِالرَّحْمَةِ الَّتِي رَحِمْتَ بِهَا «أَيُّوبَ» فَكَشَفْتَ عَنْهُ الْبَلَاءَ، وَأَسْأَلُكَ بِالرَّحْمَةِ الَّتِي رَحِمْتَ بِهَا «يُونُسَ» فَفَجَّيْتَهُ مِنَ الْغَمِّ، وَأَسْأَلُكَ بِالرَّحْمَةِ الَّتِي رَحِمْتَ بِهَا «زَكَرِيَّا» فَوَهَّبْتَ لَهُ يَحْيَى.. إِلَّا رَدَدْتَ قَلْبَ هَذَا الشَّابِّ عَلَى أُمِّهِ، وَرَدَدْتَ قَلْبَهَا عَلَيْهِ!

فَاجْهَشَ الْحَاضِرُونَ، وَاشْرَأَبَتْ أَعْنَاقُهُمْ، وَاغْرُورَقَتْ أَعْيُنُهُمْ بِالْدمُوعِ... لَكِنَّ الشَّابَّ اهْتَزَّ فَرَحاً وَابْتَهَجَ، وَاسْتَبَشَرَ بِالدُّعَاءِ أَيْمَاناً اسْتَبْشَاراً.. وَعِنْدَ خُرُوجِهِ: رَأَى الْغَيْثَ يَهْطِلُ بِغَزَارَةٍ، فَأَصَابَتْهُ رَعَشَةٌ مِنْ أَصْوَاتِ الرِّعْدِ الْمَفَاجِئَةِ، فَتَرَجَعَ قَلِيلاً.. لَكِنْ لَهَيْبِ الْوَجْدِ، وَحَرَارَةِ الشَّوْقِ: لَمْ تَجْعَلْهُ يَنْتَظِرُ طَوِيلاً.. فَشَعَرَ كَأَنَّهُ أَحَدًا يَحْمِلُ خُطَاةَ، وَيَسُوقُهُ نَحْوَ الْبَابِ الْعُمُومِيِّ، فَفُوجئَ بِأُمِّهِ تَعَانَقَهُ بِشَوْقٍ جَارِفٍ!

فَحَرَ يُقَبِّلُ رِجْلَيْهَا، وَيَتَمَلَّمُ تَحْتَ قَدَمَيْهَا.. وَيَقُولُ: وَبَرّاً بِوَالِدَتِي.. وَبَرّاً بِوَالِدَتِي.. مَا دُمْتُ حَيًّا! ■